الهُويات المُتعددة في الإنسانيات!؟

غسان مراد

لا تزال الهوية بعيدة من التعريف الموحد، ومن الممكن أن يكون هذا البعد قد بات أكثر تشابكًا مع التغيّرات العالمية في ظل التغيّرات الرقميّة. ولهذا فإنّ التركيز على مساءلة الهوية، من المفترض به أن يكون أكثر حضورًا، خاصة بالنسبة إلى الشباب في القرن الحادي والعشرين الذين باتوا في حالة تخبط بين ثقافة المطبوع وثقافة الإفتراضي (مع أرجحية للإفتراضي) وما لهذا من تأثير في هويتهم. وإذا كنا قد افترضنا أن العالم يتحرك بشكل دينامكي نحو ثقافة عالمية، ما قد يؤدي إلى بروز هوية عالميّة، إلا أنّ ما يشهده العالم أن بروز القومية والقبلية ما زالت حاضرة على الرغم من الإيحاء بأنّ ثقافة السوق العالمية ستصبح موطننا الجديد. ولهذا يمكن عدّ مقولة "أصبح العالم قرية كونية" التي اطلقها بعضهم وصدقها بعضهم الآخر، هي غير مثبتة عمليًا، ولن تصبح مثبتة. إمكانية التواصل وسهولته، واقتناء الأجهزة والتطبيقات الرقمية، لن يكون محددًا للهوية الفردية أو الهوية الجماعية، بل على العكس من ذلك فقد زاد انتشار مفهوم الهوية على نطاق واسع في الآونة الأخيرة، كانعكاس لسياقات معينة تتعلّق بصعود الأقليات والمهاجرين وغيرهم... من جهة. كما هو انعكاس للانفتاح الهجين الذي ولدتة الرقمنة لمحاولة تأكيد هوية الفرد والدفاع عن ماهيتها الخاصة وخصوصيتها لكي لا تضيع في الفضاء الرقمي.

ومن الملاحظ أن الميل للبحث في ماهية الهوية قد ازداد، وباتت من ضمن المساءلات الطاغية في العلوم الإنسانية، ولاسيّما في بداية الالفية الحادية والعشرين، كونها تتعلق بتحليل الحقائق المتنوعة المتعلقة بسيكولوجية الأفراد، وهي ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالأديان، ولها حضور مكثف بكل ما يرتبط بالعلاقات بين الذكور والإناث، وبالحياة الأسرية، والهجرة والصراعات الإثنية والعرقية وسوق العمل والمهن المتعددة... فقد

باتت مفروضه علينا كمفردة "سحرية". يكفي التطلع الى ما ينتج من مقالات في المجالات كافة، لترى هذا الحضور الكثيف والمكثف لمفهوم يدخل في كل شيء، وهذا من الممكن أن يكون طبيعيًا فكل ما يفعله الإنسان يتعلق بسلوكة في المكان والزمان والجغرافيا والتاريخ والثقافة كمفهوم شامل للحياة، إذ تبقى الهوية هي الجامع الأكيد. ولكن هل من تعريف جامع للهوية أو إنّ كل مجال يعرّفها بطريقته الخاصّة؟ قد يعتقد بعضهم أنّ هذا سؤالاً غريبًا. فللهوية خاصيّة مجرّدة فعلًا وتفاعلًا، تعود إلى أصول الفكر والمنطق بناء على سرديات متنوعة تتعلّق بالحضارة الإنسانية وتقلباتها.

من الناحية التاريخية تعريفيًا، يبدو أن الهوية واحدة من تلك المفاهيم التي لا تاريخ ثابت لها... فهي تولد مع الانسان وتشكل كينونته جينيًا– ووراثيًا، ثم تربويًّا معرفيًّا وثقافيًّا، للافراد كما للمجتمع ككل. ففي "أعماق نفس" كل فرد هوية مختبئة، هوية شخصية لا يمكن اختزالها في هويته القانونية. لدينا جميعًا هويات عديدة في داخلنا، حميمية، اجتماعية، عائلية، أكثر أو أقل توافقًا وتنافسية رهاناتها؛ كلّ هذا يحدد "الأنا" لكل منا. ويبدو أيضًا أن مفاهيم التاريخ والهوية اكتسبت اهتمامًا سائدًا مؤخرًا مع الجماعات الناشطة والأحزاب السياسية الذتي استغلت قضايا الهوية لتعزيز الإنتماءات الحزبية. فمن ناحية السرد الزمني من الواضح أن التاريخ يقدّم روابط الجذور والهوية الموثقة خلال مرور الزمن تاريخيًا. طبعًا من دون روابط سيكون من المستحيل معرفة كيف يتناسب الناس مع عائلاتهم ومجتمعاتهم. التعرف إلى حياة الناس الذين عاشوا في الماضي. هذا الوعي يفترض أن جميع البشر ومؤسساتهم الثقافية موجودة في الوقت المناسب، ولديهم أصل وصيرورة، ولا يمثلون شيئًا مستقرًا أو غير قابل للتغيير أو بدون شروط مسبقة. فالتاريخ، بالمعنى الأنثروبولوجي للمصطلح، يجمع بين الماضي والحاضر والمستقبل حتى يستطيع البشر العيش جنبًا إلى جنب مع الذكريات وتوقعات المستقبل. فالوعي التاريخي، متأصل عند البشر من خلال ثلاث خصائص مترابطة: أولا، التوجه الزمني الذي يسمح

للأفراد بتوجيه أفعالهم بالإشارة إلى الذاكرة التاريخية. وبفضل الهوية التاريخية، يمكن للفرد ("الأنا") أن يفكر في نفسه ككائن تاريخي. ومن خلال القيام بذلك، فإنه يوفر إمكانية للفرد لتسجيل هويته وانتمائه إلى مجموعات تمتد رحلتها بمرور الوقت كما تتمثّل جغرافيًا في مكان محدد. أخيرًا، الشكل اللغوي الذي من خلاله ينفذ الوعي التاريخي وظائفه في التوجيه وبناء الهوية السردية. وهذا ما يمكن ملاحظته في الكتابات الأدبية، إذ تُحدد هُويّة الادب وهويّة المؤلف. أما اجتماعيًّا وثقافيًّا وتربويًّا فالهوية تكتسب وتحدد الهوية بناء على أساليب اكتساب المعرفة، وما تقدمه للأفراد وللمجتمع من إمكانيات تساعدهم على تثبيت انتماءتهم.

انطلاقًا من ذلك، ومن خلال البحث عن الهويات المختلفة للفرد كما للجماعة تاريخيًا، جغرافيًا، ادبيًا وتربويًا، ففي هذا العدد عدة دراسات تتعلّق بالهوية، بالتصريح أو بالتلميح، بهدف فهم سلوكية الفرد من جهة وسلوكية المجتمع من جهة ثانية. تهدف الدراسة الأولى ألى كشف طبيعة العلاقة بين المخطّطات المعرفيّة اللاتكيّفيّة والسّلوك أثناء قيادة السيارات. وقد خلُصت الدراسة الى ارتفاع مستوى القلق وتردد السلوك العدواني لدى سائقي السيارات، وإلى انخفاض مستوى الحذر لديهم,

أما الدراسة الثانية فهي تسعى إلى سرد أسس تأسيس مطرانخانة مصر للموارنة في العام ١٩٠٥ والدور الذي لعبه اللبنانيون الموجودون في مصر الذين تبرّعوا بالأموال اللازمة لإنجاز المشروع. وهكذا نشأت أبرشية في مصر أسهمت في تأمين متطلبات الموارنة روحيًّا واجتماعيًّا.

وفي مجال الجغرافيا والهوية المكانية تعمل الدراسة الثالثة على تبيان أثر التطبيقات والتقنيات الرقمية في إعادة رسم خريطة متصرفيّة جبل لبنان بعد أن كان تحديدها عشوائيًّا، وبمساعدة هذه التطبيقات الرقمية فقد تأكد من خلال الدراسة أن مساحتها بلغت ٣٥٣١ كلم٢.

ومن ضمن الدراسات التي تحاكي الأدب السردي ودور المؤلف وهويته، نعرض في هذا العدد تجربة المعاناة الفردية والجماعية في الأدب اللبناني الفرنكوفوني المعاصر. وقد ارتكزت الدراسة على قراءات لثلاثة مؤلفين الذين استطاعوا تحويل واقعهم الشخصي إلى روايات أدبية معبرة عن معاناة مجتمع بكامله، باستخدام نهج مشابه للتفسير الجماعي في علم الاجتماع.

وفي السياق عينه تسلط الدراسة التالية الضوء على نظرة إلى المجتمع اللبناني وتحليل عناصر الهوية اللبنانية، من خلال قصة شخصية "ياد"، منقذ لبنان. وترسم هذه الرواية لوحتين مختلفتين ولكنهما متكاملتان: لوحة الفرد، وهو بطل الرواية ياد، ولوحة أخرى اجتماعية تاريخيّة للمجتمع اللبناني. الأوّل، المسيطر هو اللبناني الطائفي. والثاني، الكامن هو اللبناني" النيو لقيط" وهو الذي يشكل الأمل في تغيير النسيج اللبناني الذي يلوح في أفق الرواية.

وتأتي الدراسة السادسة حول الآنسة "ساراغوسا" للورد بايرون في إعادة بناء هوية البطولة. وتبين أن بايرون لم يسلّط الضوء على دور الذكور فقط فيما يتعلّق بعلاقة الجندر ببناء الأمّة، بل شدّد أيضًا على دور الإناث بوصفهنّ محاربات متمكنات من العمل السياسي النجاح في هذا الميدان في المستقبل. تكشف دراسة مجموعة بايرون الشعرية أنّه لا يمتثل دائمًا لأدوار الجنسين، ولكنّه يميل إلى تحدّي النظام الأبوي بقلب المفاهيم التقليدية للأنوثة. كما يطرح هذا البحث مفهوم البطولة كمت قدّمه بايرون على أنّه عمل خنثوي، وذلك باستخدام نظريات الرجولة الأنثوية "لهالبرتستام" ونظرية جوديت باتلر للأداء الجندري.

تعليميًا نقرأ في هذا العدد دراسة، من ضمن التلميح للهوية التربوية، حول أدوات الربط المنطقية التي تستخدم من قبل طلاب الماستر اللبنانيين في كتابتهم الأكاديمية، وذلك في محاولة لاكتشاف مستوى مهاراتهم المعرفية. وقد ارتكزت الدراسة على بيانات مجموعة مؤلفة من ٢٨ ورقة بحثية (٣٥١٤٦ كلمة) كتبها عيّنة من طلاب

الماستر في الجامعة اللبنانية، وذلك ضمن مهمّة دراسية. اعتمدت الدراسة الحالية التحليل الكمّي. وكشفت دراسة وتيرة استخدام أدوات الربط المنطقية المستخدمة. أما بالنسبة إلى المهارة المعرفية المتعلّقة بالتقييم، فقد تبيّن أنها تستخدم على نطاق أقلّ في فصل مراجعة الأدبيات والنظريات للمتعلمين.

ومن ضمن مجال الآثار والبحث عن الهوية التاريخية الجماعية، تناول هذا العدد دراسة حول التقنيات الرقمية المستخدمة في المسح الأثريّ، وتحديدًا السير الميدانيّ (prospection pédestre). وتبيّن مدى فاعليتها، وحسناتها، ونتائجها، وذلك من خلال عرض كيفيّة استخدامها، وتطبيقها، وتأثيرها، بالارتكاز على المسح الأثريّ الذي جرى في قرية يونين شمال شرق مدينة بعلبك.

ومن الناحية التربوية المتعلقة في كيفية تعليم التاريخ تطرح الدراسة مقاربة جديدة تساعد في تنمية مهارات التفكير التاريخي في الصفوف المتوسطة والثانوية، وتحاول الدراسة الإجابة على سؤال مركزي؛ وهو كيفية تنمية مهارات التفكير التاريخي لدى طلّابنا، وكيف يستطيعون تنمية فهمهم للماضي والحاضر، وتبيان طرق التفكير التي يعتمدها المؤرّخ في عمله لتكون المدخل الأساسي للعملية التعليمية.

واستكمالًا للعرض التاريخي تبيّن الدراسة الآخيرة مدى تأثير حرب الخليج الأولى وانعكاسها على الساحة اللبنانية أمنيًا في المرحلة الزمنية التي تقع بين بين أيار ١٩٨٠ وكانون أول ١٩٨١.

أخيرًا وارتكازًا على ما كتبه رينيه ديكارت: "أفكر، إذن أنا موجود"؛ فهل مجرد التفكير تثبت وجود "الأنا"؟ سؤالٌ يبقى مفتوحًا للإجابة عليه.